بلوغ الأرب
فى التعامل بلغة العرب

أ.د. أحمد محمد صبرى*

والأرب الذى نستدفه ونعمل على بلوغه والتوصل إليه هو الوضوح والسهولة واليسر وجمال التذوق، فالعربية تعنى الواضحة المبينة، فأنت تعرب عن رأيك تخرجه إلى حيز الوجود واضحاً مفهوماً، وهى أيضاً بنص القرآن الكريم : عُرُباً أترابا (٣٧) سورة الواقعة، و"عربا" تعنى محببات إلى أزواجهن أى أن فى هذه الكلمة معنى الحب الذى فى ظله تتسامى العلاقات.

ومما يعين على بلوغ الأرب وفرة اشتقاقات وحداتها، وكثرة أعداد مفرداتها، فالقلب أو تبادل أوضاع الحروف فى كلمة واحدة حتى من غير زيادة فى المبنى

---

* أستاذ الجيوفيزياء – كلية العلوم – جامعة عين شمس – القاهرة.
أستاذ القراءات – كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

يؤدى إلى زيادة فى المعنى مثل : عدَّ، دعَّ، ومن الثلاثى على سبيل المثال: صهر، ورهص، وهصر. وفى الثلاثة معنى الكسر، فالأول: يمثل كسراً من حالة الصلابة والتجمد إلى السيولة برفع درجة الحرارة، والثانى يكسر العادة ويخرق المألوف ولا يعتمد على أساس أو قاعدة وأما الهصر فكسر الهيكل وتحطيمه وتقطيع أوصاله حتى يرى كالهشيم المحتظر، فالكلمة ثنائية الحرف إذا حل أحدهما محل الآخر نتج عن هذا الإحلال والإبدال لفظان مستعملان أو مهملان أحدهما أو كلاهما (ولا نرى إهمالاً فى حالة الثنائى) لكن إذا تكونت الكلمة من أكثر من حرفين هنا يكون الحديث عن الاهمال والاستعمال إذ نتج عن الكلمة ثلاثية الحرف ست كلمات : ثلاث رأينا لها استعمالاً واقعاً ملموسا فى ثلاثة معان : صهر وهصر، ورهص، ولم نجد عندنا رصه، ولا هرص، ولا صره، وإن كان للكلمة الوسطى معنى جاء به لسان العرب لابن منظور إذ قال الفراء: هرص الرجل إذا اشتعل بدنه حصفا، قال : وهو الحصف والهرص والدود والدواد، وبه يكنى الرجل أبا دواد. إبن الأعرابى: الهرنصاصة دودة وهى السرفة. وإذاً فالكلمة المكونة من ثلاثة أحرف يمكن بالتقليبات التى أعدها الخليل بن أحمد الفراهيدى عن طريق معجمه الشهير: "العين" يمكن أن يستخرج منها ست كلمات: ٢ × ٣ = ٦، والكلمة الرباعية ينتج عنها ٢ × ٣ × ٤ = ٢٤، أما الكلمة الخماسية . وليس فى العربية ما يزيد عليها مجردة . تأتى بمائة وعشرين وهى ٢ × ٣ × ٤ × ٥ = ١٢٠ وتكون الحصيلة من هذا كله : ١٢.٣٠٥.٤١٢، استعمل منها حتى الآن وصار لدينا فائض أو مخزون لفظى يربو على ٩٩% حيث لم يستعمل سوى ما يناهز المائة وعشرين ألفا وهذا الفائض: ١٢.٣٠٥.٤١٢ . ١٢٠.٠٠٠ كفيل باستيعاب أضعاف أضعاف ما يطالعنا عصرنا من مخترعات وإن نمت فى أعدادها نمواً سرطانياً . كما أن وضع حروف العربية فى مجموعات هى المخارج من الجسم ما بين جوف وحلق ولسان وشفتين مع الأخذ فى الإعتبار وجود الأسنان بمختلف أنواعها بعضها أو كلها فكأن الجسم آلة موسيقية وصاحبه هو العازف عليها، ويقدر مهارته وخبرته فى إخراج كل حرف من مخرجه والنطق به مستوفياً صفاته يكون

صفاء حديثه وبهاؤه من الجهة الشكلية أو المظهرية. ويشرف على ذلك وينظمه قواعد التجويد التى عنى بها القرآن الكريم أصل اللغة ومظهرها وموسع أقطارها وحافظها من الضياع، ولهذه المخارج والصفات أنفع المزايا وأجل الخدمات. فقد يحل حرف من نفس المخرج محل مُجانسه فيشتركان فى المعنى العام ويفترقان فى المعنى الدقيق المقيد مثل سعد وصعد، ومثل قضم وخضم وقبض وقبص، و يكون تناقض فى المعنى مثل قنت وقنط، أو يكون الإحلال لمجرد سهولة فى النطق ويسر فى التلفظ مثل واصطفى، واصطبر، وزنه كل منهما "افتعل" وليس "افطعل" وقد أحيلت التاء طاء لمجاورتها حرفاً علويا مثلها وهو الصاد بينما التاء حرف استفال، فالصفات هنا تقوم بدور كبر جنباً إلى جنب مع مخارج الحروف.

وقد لا يكون الإحلال قائماً بل هو الميل أو ما يسمى بالإمالة أو الإضجاع وهو أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، وللإمالة دور بارز وفعال فى إيضاح المعنى وتبيان القول حتى لو تجاوز القارئ من القراء العشرة المتواترة فى قراءاتهم أسس الاختيار الذى بنى عليه قراءته إلى اختيار آخر لم يكن معهودا بالنسبة له كما حدث فى قراءتى أبى عمرو البصرى ويعقوب الحضرمى، فالأول يقلل ذوات الياء على وزن فعلى ثلاثية الفاء (فَعلى وفِعلى وفُعلى) فالأولى جمعت فى القرآن الكريم فى أحد عشر موضعاً وهذه المواضع هى: "السلوى، الموتى، التقوى، النجوى، القتلى، مرضى، دعوى، شتى، صرعى، طغوى، ويحيى" أما الكلمات مكسورة الفاء فهى اربعة لا غير: سيما، إحدى، ضيزى، وعيسى"، بينما الكلمات التى ضم فاؤها فربت على هذا وبلغت العشرين وهى: "موسى، أنثى، الدنيا، قربى، الوسطى، القصوى، العزى، الوثقى، الحسنى، الأولى، السفلى، العليا، الرؤيا، طوبى، المثلى، السواى، زلفى، سقيا، الرجعى، وعقبى. فأين "اعمى" من هؤلاء ؟ إنها على وزن أفعل، ومع ذلك فإن أبا عمرو الذى يقلل اليائى فى"فعلى" مثلث الفاء، والتقليل أن تنحو بالحرف منحى بين الفتح والإمالة دون الوصول إلى الأخيرة وهى الإمالة . نراه قد أمال "أعمى" الأولى فى

سورة الإسراء من قوله تعالى: "ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً (٧٢)" وشاركه فى هذا يعقوب الحضرمى الذى لا يميل ولا يقلل، وكلاهما يُميل الأولى ويفتح الثانية فلم هذا الوضع؟ إن كلمة "أعمى" الأولى فى الآية الكريمة من ألفاظ العيوب بينما الثانية اسم تفضيل وتفسر الآية على هذا النحو: ومن كان فى هذه الدنيا مكفوف البصر فهو فى الآخرة أكثر عمى أى أنه عمى عن الحق فى دنياه فحاق به العمى فى أخراه بدرجة أشد، قال تعالى فى سورة طه: "ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى (١٢٤) قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا (١٢٥) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (١٢٦) فلننظر كيف كان القرار بتعديل الإختيار فى هذا الوضع بالذات . وكلهم من رسول الله ملتمس . إنه قد جاء لمغزى يخدم به معنى.

وقد يقول قائل: إن فى لغات أخرى ما يسمى بالنبر والتنغيم فهل فى العربية مثل ذلك؟ نقول : إن العربية رغم ثرائها العريض بمشتقاتها ومفرداتها التى لاتعوزها إلى أداة تصدير أو سبق Prefix أو سمها سوابق ولا تقتصر إلى لواحق suffixes كما هو الحال فى اللغات أو بعض اللغات الأخرى لكى لا تتوقف عن ملاحقة متطلبات الكشوف والمخترعات التى تفرض وجودها المدنية المعاصرة – بها أيضاً نبر وتنغيم ومن أمثلة – البنر – وهو ما قد يحيل الفعل اسما أو الاسم فعلا – ما قرأ به خلف راويا عن حمزة وهو نفسه ولكن بقراءة مستقلة حتى عُد عاشر القراء المتواترة قراءتهم أو صحيحة السند مع الشهرة ماجاء ى سورة النمل: قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك (٣٩)، قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك(٤٠) فكلمة "آتيك" إن أميلت أعطت معنى الفعل المضارع وإن فتحت كانت اسم فاعل والفتح أظهر من الإمالة ففى الأولى تعنى "أنا أحضرها لك" وفى الثانية "أنا آت لك بها لا محالة" فاسم الفاعل أكثر فاعلية ودواما واستمرار من الفعل المضارع الذى ينقطع ويتجدد، أما التنغيم فيستغنى بالصوت عن الكتابة وبالنطق عن

الكلمة المدونة. فمما عبر به الشيخ الشعراوى فى خواطره ولقاءاته عندما عرض تجارب سيدنا ابراهيم . على نبينا وعليه الصلوات والتسليم فى سورة الأنعام: فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى" (٧٦)، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى" (٧٧)، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر (٧٨)" . قال الشيخ لم تكن كلماته موحية بالاخبار بل بالتعجب والاندهاش المعبر عنه بالاستفهام والاستفسار، كأن يأتى خطيب قصير تراه الخطيئة فتعبر عن دهشتها لقصره فتقول هذا خطيبى؟! إلا أن النهاية لكل آية تستبعد ما تصوره الشيخ الفاضل رحمه الله وطيب ثراه وأخلد ذكراه.

ثم إن الثراء العريض الواسع الفسيح الممتد للغة العربية بالمشترك اللفظى مثل "العين" ومن معانيها : عين الماء، والوجيه والجاسوس والذهب والفضة والأخ الشقيق والشمس، وكذلك "الدين" الذى من معانيه الحساب والجزاء والقانون والنظام وحسن السلوك واتباع القواعد الصحيحة، وإن كان فى بعض اللغات الأخرى مثل ذلك ولكن بدرجة أقل، ففى الانجليزية على سبيل المثال pound بمعنى جنيه وبمعنى رطل، وفى الفرنسية livre بمعنى جنيه وبمعنى كتاب ولكن هل تقتصر العربية على اللفظ دون المعنى؟ أنظر قول الشاعر:

أراعى النجم فى سيرى اليكم ٠٠٠٠ ويرعاه من البيدا جوادى

أى أن الشاعر ينظر النجم فى السماء اهتداء به وتعرفاً على طريقه من خلاله ويقوم فارسه برعى النجم الذى هو النبت بلا ساق وكما نرى فالمشترك اللفظى هو التعبير بلفظ واحد عن عدة مدلولات .وإن كان ذلك فى اللغات الأخرى إلا أنه ليس بالشيوع أو الذيوع أو الانتشار المشاهد فى العربية، ومن امثلة ذلك فى الانجليزية capital بمعنى عاصمة. وهى أيضا راس المال، فالعاصمة رأس البلد، وكلاهما رأس.

ألا يكفى هذا شاهد على رحبة العربية وسعتها إذا قورنت بسعة غيرها من اللغات أم أننا فى حاجة إلى الاستشهاد بعدد أحرف كل لغة ؟ . نعم عدد حروف العربية

ليست بالكثرة التى تجعلها صعبة التحصيل أو عسيرة المنال والقبول، فحروفها تقل عن الثلاثين ولكن كل حرف بعشرة فهو يفتح ويكسر ويضم ويسكن وثلاثة التنوين عوضا أو تنكيرا أو نحوهما وثلاثة التضعيف، فانظر كم تستوعب وكيف تستوعب ما يدخلها ويلج فيها من معان، ناهيك عن أن هذه اللغة الجميلة عندما تطلق اسما على مسمى فانما تبين صفاته وخصائصه، فالناس مثلا من النسيان أو الأنس، والبقرة من بقر الشئ والثور من إثارته، والغول من الإغتيال وهو الكحول الذى يغتال العقل، وهكذا وفى التقديم والتأخير والتبديل والتغير والإحالة والتحويل ذخيرة معنوية نسوق لها أمثلة مثل : خير العمل وعمل الخير، وكلام الإمام وإمام الكلام .. إلخ نعم هذا معنى وذاك معنى آخر، فعندما يكون المسند اليه مسندا أو المسند مسندا اليه يختلف المعنى اختلافاً بينا وجذريا ولكن هذا لا يعد بأى حال تلاعبا بالألفاظ بل تغاير فى معانى المسميات بحيث يكون الدلالة عن واقع غير الواقع الذى كنا نظن أو نتوقع من التعبير الآخر والذى لا يعدو أن يأتى بقلب لمفردات الكلام تقديما أو تاخيرا، وهذا مشاهد فى الأسلوب العلمى وله دلالته الهامة مثل Geohydrology والذى يعنى علم المياه الأرضية ويقابله Hydrogeology ويعنى علم جيولوجيا المياه، فالأول يبحث فى علم المياه التى بالأرض، والثانى يتناول دراسة الجيولوجيا فيما يتعلق بالمياه، ومثال آخر physical geology وهو العلم المعنى بالظواهر الطبيعية (الفطرية) الجيولوجية كالجبال والهضاب والوديان والمحيطات والبحار .. إلخ، أما Geophyysis فهو المنوط به دراسة الأرض من خلال استخدام الوسائل الفيزيائية من كهرباء ومغناطيسية وتثاقلية وحرارة وموجات سيزمية مرنة وتحليلات ميكانيكية .. إلخ، فإن جاء ذكر Structural Geology فهو بمثابة الجيولوجيا البنائية التركيبية وهو علم قامت أسسه على دراسة الأبنية والتراكيب ذات العلاقة بالأرض، أما Geological structures فالمقصود به التراكيب والأبنية الجيولوجية ذاتها مثل الفوالق والصدوع والطيات والقباب والأحواض وكل ذلك نجد له مجالاً فى العربية تستوعبه دونما عائق أو ضيق فى الحيز والمكان وإنما سيجد رحبة واتساعاً قد لا يكون بهذا القدر إذا جاوز لغتنا الى لغة أخرى.

أما الذى نقترفه فى حق لغتنا فهو جناية بكل الأبعاد والمقاييس ولهذا تمضى حياتنا سريعة ومتلاحقة إلى الوراء فى هذا العصر، حيث تخلى الأهل عن لغتهم ومصدر ذكرهم وشرفهم فباءوا بخسر على خسر، فهل يعقل أن يكون فى شارع الأزهر، محل لبيع الحقائب كتب عليه بالعربية باج سنتر؟ قالها على الملأ الأستاذ الراحل الدكتور رشدى فام وأنا أقول والله حرام. وأمام بيتنا فود سنتر، وقد يكون من أسماء صاحبه ومديره عنتر، ويقول الدكتور محمد عماره، المفكر الإسلامى ذو الآراء المنتقاة المختارة، وفى حلقه غصة تنم عن ندامة عندما يرى شركة إسلامكو للإصلاح والترميم، ومهما قلنا أو نقول فما رأيك فيما عم وطم من أنستيتوت Institute أو اسكول school فيها المواد تدرس بغير العربية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية على أيدى غير المؤهلين وكثير ما هم ليجد خريجوها فرصة ذهبية لدى الشركات والهيئات والمؤسسات الأجنبية ثم هم ينهالون على تعليم العربية بالمطارق، وتجد النقد اللاذع لها من كل زاعق وناهق وناعق وشاهق، ومن طريف ما يحكى أن طرق أحدهم باب صديق فخرج ابنه الذى يتعلم فى مدارس أجنبية ويسأله الطارق: أين أبوك؟ فيقول : إنه يصيلنج Ing أى مستمر فى الصلاة بصيغة المضارع مع استمرار الحدث .

فالعربية . هكذا يقولون . لغة علمها الله آدم . على نبينا وعليه الصلاة والسلام . فى الجنة، ولا يتضرر منها أو يبتعد عنها إلا من كان به جِنة. وقد جاء فى الأثر: تعلموا العربية لثلاث: لأنى عربى، والقرآن عربى، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى" ونحن نصدق ما جاءنا به النبى الأمى، صلى الله عليه وسلم، ويشهد على حسن موقعها على اللسان، شاهد هو الأستاذ حليم فريد تادرس، وذلك فى أهرام الأحد ٢٦ (٢٧) صفر سنة ١٤١٩ . ١٩٩٨/٦/٢١ وكان أول الصيف، إذ يقول كلاما بلا مواربة أو زيف عن صديقه على الورق الدكتور شعبان عبد العزيز عن تقرير حديث للمجلس الثقافى فى لندن أن اللغة العربية ستصبح عالمية بفضل عوامل ومتغيرات سكانية وسياسية واقتصادية سيشهدها العالم فى النصف الأول من القرن القادم

(الحالى)، وقد أخطأ التقرير (هكذا يقول تادرس) فالكشف عن السبب الذى سيؤهل العربية لكى تصبح لغة عالمية، وكان توضيحه عن سبب عالميتها فى الحاضر والمستقبل أنها تعد بإجماع علماء اللغة أعظم اللغات كفاية وأكثرها مرونة، وأقدرها على التعبير عن مختلف فنون القول، وضرب مثلا بالألفاظ المستعملة كما قرره حسن الزبيدى فى "تاج العروس" وفقا للتقلبات التى أفصح عنها كتاب "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدى . والتى أشرنا إليه سلفا . وهى إلى جانب ذلك . أكثر لغات العالم أصواتا ومقاطع إذ بها ثمانيةوعشرون حرفا غير مكررة بينما فى الانجليزية . وأخريات غيرها . ٢٦ حرفا كرر بعضه. ومن هنا وصف سليمان البستانى مترجم الياذه هوميروس، وهيدروس على علو شأنها لم تقم للغة اليونانية دعامة ثابتة حتى فى بلدها.

لكن القرآن الكريم وحد لغة قريش فى بلادهم وأذاعها بين المليار وربع المليار مسلم وليس ٢٢٠ مليونا فقط هم العرب ولأن اللغة العربية هى كل ما تقدم اختارها الله تعالى لغة القرآن الكريم تشريفا للعرب وتكليفا فى الوقت نفسه .

وإذا كانت اللغة العربية كذلك ولغة القوم هى هويتهم وقوميتهم ودعامة ثقافتهم، والحفاظ عليها هى الحفاظ على الماضى والحاضر والمستقبل، فثمة سؤال حير الأستاذ حليم تادرس ولم يجد له عنده إجابة مقنعة وقد أطلق عليه سؤالا محوريا ذلك هو ! لماذا تنشئ وزارة التعيم فى كل مدينة وحى على أرض مصر المحروسة مدارس لغات حكومية من الحضانة إلى الثانوى تلقن تلاميذها شتى المعارف والعلوم بلغة أجنبية (بالاضافة الى كليات الجامعة التى استبدلت الانجليزية والفرنسية بالعربية) ؟ والاجابة معروفة ومألوفة ولا تدعو الى الحيرة يا أستاذ حليم تادرس فالمال يلوى أعناق الرجال وتهيئة الخريجين للعمل بالسفارات والهيئات الأجنبية هدف غال، بالمخالفة إلى ما انتهى اليه علماء اللغة والتربية والاجتماع والصحة النفسية وتوصيات مجمع اللغة العربية من الاجماع على أن تلقين تلاميذ المدارس العلوم والمعارف بلغة أجنبية من

شأنه أن يضعف أو حتى يضرب هويتهم وقوميتهم ويعطل نموهم اللغوى ويولد فيهم شعورا خفيا بأن اللغة العربية التى يتحدث بها آباؤهم وأمهاتهم وإخوانهم ويتخاطب بها الناس ليست مؤهلة لتوصيل المعارف والعلوم وأن ثقافتهم التى تشكل اللغة دعامتها هى دون الثقافة الأجنبية التى تستعمل لغتها فى التعليم ومن ثم يزورون لغتهم القومية رمزهويتهم وتركبهم عقدة الشعور بالنقص والدونية فينزعون "لا شعورياً" بكل ماهو غربى كالغراب الذى بهره ذيل الطاووس فانتزع ذيله باهر الألوان وغرسه فى ظهره فإذا هومسخ بين الخلائق فلا هو ظل غرابا ولا صار طاووسا، ولا يزال السؤال المحير يدق راسى كالمطارق (وكل هذا من آراء وتقاسيم، الأستاذ فريد حليم). وقد قدمت لك الإجابة على السؤال المحير الذى يستفز ويفرس يا أستاذ حليم تادرس، وبقى أن نتقدم بنصائحك الغالية إلى الناقمين على اللغة من أمثال الراحل سلامه موسى ومن خَلَّفهم وراءه للحط من شأن العربية والدعوة الى التخفيف من غلوائها والتخلص من عقدها وكثير ما هم وعلى رأسهم غير المنصفين من المستشرقين .

ومنذ سنوات دعيت معقبا على إحدى حلقات بمثابة ندوة عن تعليم العربية فى المدارس الإعدادية فى مجمع الخالدين . وكان يومها المرحوم دكتور عبد الله شحاته حاضرا . ووجدت هجوما شديدا على حروف اللغة العربية مفاده أن الحرف له ثلاثة أشكال مختلفة فالذى يستهل به الكلمة مغاير لما يتوسطها مختلف عما تنتهى به، ومن هنا كان التعقيد فى الكتابة بها وكان الإقتراح والمطالبة باستبدال اللاتينية بها أسوة بما أتبع مع غيرها . قلت هذه ميزة وليست عيبا أو نقصا فشكل الحرف فى أول الكلمة دليل على بدايتها وفى آخرها دليل على نهايتها حتى ولو لم تترك مسافة بين الكلمتين وهذا لا يتأتى بالنسبة لغيرها بحيث إذا لم يترك فراغ بين الكلمتين صارتا كأنهما كلمة واحدة .

أقطار تعتز بلغاتها :

هذا، لمسته بنفسى عام ١٩٧٣ حينما كنت فى باريس فى طريقى من أمريكا الى مصر وعن لى أن أسأل عن بعض المعالم مكنت أسأل عن بعض المعالم بالانجليزية فيأتينى الجواب باللغة الفرنسية متضمناً المقصود والمطلوب فالمجيب إذاً قد فهم السؤال ولعله فهم أيضاً أن السائل لا يجيد لغة الموقع الذى فيه ثم إن المجيب كانت له الصفة الرسمية لأنه يعمل بمحطة القطار ولكن اعتزازه بلغته وحرصه على المخاطبة بها أدى إلى إجبار من يريد الاستفادة منه والتعامل معه على استعمال ما هو محبوب لديه ومثل ذلك فى إيران سنة ١٩٧٤ وتركيا سنة ١٩٧٩ ولكننا نتباهى ونفتخر بلىٍّ ألسنتنا وَهماً منا أننا بذلك نكتسب رقيا وحضارة وما هى بالحضارة ولكنه تأخر وتدهور أبعد ما يكون عن أى سمة من سمات التحضر.

أمثلة على اتساع اللغة ورحبتها :

فى نقاش مع أحد طلاب الدراسات العليا فى كلية القرآن الكريم بالسعودية يوم كنت أحد الحكام والفاحصين والمناقشين فى رسالة الدكتواره (العالمية العالية) فى القراءات وأظن عنوانها كان : "الانفرادات عند علماء القراءات وكان الطالب يدعى الشيخ أمين الشنقيطى" قلت لو فرض عندما نزل القرآن الكريم أن كان هناك لغات أخرى بجانب اللغة العربية وعرض على أى منها أن تستوعب القرآن الكريم لما جرؤت إحداها أن تقوم بهذا العبء الثقيل – كما فعل الله تعالى بعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملها وأشفقن منها" . وحجتنا فى ذلك أمثلة من القراءات نستهلها بالآتى:

١– الآية ١٩٧ من سورة البقرة: "الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج".

قرأ ابن كثير المكى وأبو عمرو بن العلا البصرى ويعقوب الحضرمى برفع الأولين: فلا رفث ولا فسوقُ ونصب الثالثة (بنائها على الفتح وهذه قراءة جميع الباقين من العشرة إلا أبا جعفر الذى رفع الثلاثة منونة كلها فإن طرقنا جانب النحو بشكل

مبسط قلنا إن قراءة الفتح يكون فيها "لا" نافية للجنس، وفى قراءة الرفع تكون "لا" غير عاملة وما بعدها مبدأ وخبر أو أنها عاملة عمل ليس وبالتالى فالرفع لأن اسم "ليس" مرفوع، وإذا جئنا للمعنى وهذا ما نركز عليه ونهتم به أكثر من مجرد الهيكل النحوى قلنا إن شبه الإجماع على فتح "جدال" فيما عدا قراءة أبى جعفر المدنى . أن معنى "لا رفث" فلا ترفثوا، ومعنى "لا فسوق" لا تفسقوا، ومعنى "لا جدال" أى لا شك فى فرضية الحج، وقيل "لا جدال" أى لا تجادلوا وأنتم مُحرِمون ولئن جاء فى "أثر القراءات القرآنية"[١] أن الفتح أقوى لما فيه من نفس العموم، فإننا نقول : إنها قراءات قرآنية متواترة ولا توصف بالأولى أو خلاف الأولى رغم وروده عن أبى البقاء العكبرى[٢]. ويقول ابن خالويه[٣] والحجة لمن رفع "الرفث" وهو الجماع، "والفسوق" وهو الخروج عن الحد أنهما قد يكونان فى حال من أحوال الحج فجعل "لا" بمعنى "ليس" فيهما، ونصب الجدال على التبرئة. لأنه يريد به المراء والشك، فى تقديمه وتأخيره على ما كانت العرب تعرف من أحوالها. ويقول صاحب "(اتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر" للشيخ أحمد الدمياطى الشهير بالبناء ت ١١١٧ هـ . رواية على محمد الضباع) : بناء الثالث وهو " لا جدال" على الفتح على معنى الاخبار بانتفاء الخلاف فى الحج لأن قريشا كانت تقف

---

(١) أثر القراءات القرآنية فى تطور الدرس النحوى للدكتور عفيف رمشقية معهد الاتحاد العربى فرع لبنان . بيروت ط أولى ١٩٧٨ .

(٢) إملاء ما مّن به الرحمن جـ ١ ص ٥٠، ٥١.

(٣) "الحجة فى القراءات السبع" تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم، دار الشروق بيروت سنة ١٩٧١ ص ٧٠، ٧١.

بالمشعر الحرام فرفع الخلاف بأن أمروا أن يقفوا كغيرهم بعرفة. وهناك أيضاً من معانى : "لا جدال" مرفوعة وهى عند أبى جعفر فقط أى لا يكن هناك جدال كالذى يدور الآن ويحدث لفظاً يروجه المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون ألا يقتصرط الحج على زمان معين استناداً إلى نصوص عجزوا عن فهمها الصحيح ولا

على مكان بعينه حتى لا يضيق المكان بأهله وكأنهم أرادوا بذلك أن يكون الحج أشبه بالمونديال يتوزع حجاجه على بقاع وأصقاع كثيرة فإذا حدث فقد فقد صفة المؤتمر العالمى الذى أراده الله وارتضاه، أما عن ذكر التبرئة فقد جاء بها وجه عن حمزه الورع وهو أيضاً منقول ومتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويسمى مد التبرئة أو أنه يقصد به الإستبعاد والتنزيه، فلحمزة فى "مد "لا" النافية للجنس وجهان: أحدهما المد الطبيعى المتعارف عليه والذى أفادنا علماؤنا أن "الذىلا يمد المد الطبيعى طبيعياً فهو غير طبيعى" وهذا ما التزم به حمزه . قال الشاطبى عنه :

وحمزه ما اذا كان، من متورع ... إماماً صبوراً للقرآن مرتلاً"

واضاف اليه نقلا بأسانيد متواترة عن رسول الله صلى الله عيه وسلم . ضعف هذا المد للتبرئة . كما قلنا . ولنا فى زعيم عربى سابق تشبيه فى تأكيده لنفى ما قد يشاع "أبدا" بتشديد الباء لتأكيد التأبيد . وأفرادها فى القرآن ثلاثة وأربعون: ذلك الكتاب لا ريب . سبحانك لا علم لنا (وأيضا قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) لاشية فيها – لا جناح – لا عدوان، فلا رفث – ولا فسوق، ولا جدال، لا طاقة . لا خلاق (وكلها فى سورة البقرة والتى بين القوسين فى سورة المائدة – لا غالب (فى الأنفال)، لا خير (فى النساء)، لا كاشف (فى أكثر من موضع)، لا مبدل لكلماته (فى أكثر من موضع)، لا شريك، فلا هادى (الأعراف)، لا ملجأ (التوبة)، لا تبديل، فلا راد، لا جرم، لا عاصم، فلا كيل، لا تثريب، لا مرد، لا معقب، لا قوة، لا مساس، لا عوج (يتبعون الداعى لا عوج له) (الآية ١٠٨ سورة طه)، فلا كفران، لا برهان، لا بشرى، لا خير، لا قبل، لا مقام، فلا فوت، فلا ممسك، فلا مرسل، فلا صريخ لهم، لا ظلم اليوم، لا حجة (لا حجة بيننا وبينكم الشورى ١٥)، لا مولى، فلا ناصر (أهلكناهم فلا ناصر لهم) (سورة محمد صلى الله عليه وسلم)، كلا لا وزر. وليس منها "لا خوف" ونحوه من المنون المرفوع لأن فى المنون المرفوع خلافا بين النحوين فى كونه تبرئة أو مشبها لليس ومذهب حمزه هو الثانى كما هو مذهب الجمهور أ.د. "إلا تحاف هامش ص ٤١) .

٢- الآية (٥٥) من سورة الأنعام: "وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين" وبرفع "سبيل" يعنى يتضح هذاالسبيل ولا يشوبه لبس أو غموض ويقرأ برفعه جميع القراء العشر فيما عدا المدنيين نافع وأبو جعفر اللذين يقرآنه منصوبا وبالتالى يكون الكلام موجها للنبى . صلى الله عليه وسلم . أى تستوضح أنت سبيل المجرمين وتكون على علم بما يعملون ويقترفون ويخططون ويجوز تذكير "السبيل" وتأنيثه فالتذكير اختيار الأصحاب الثلاثة حمزه والكسائى وخلف العاشر كما جاء فى قوله تعالى فى سورة الأعراف: "وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا .." (١٤) ويبقى بعدهم ستة قراء وراو هو حفص إذ أن الراوى شعبة عن عاصم الذى يشارك حفصا الرواية عنه ينضم فى اختياره إلى الأصحاب الذين ذكرنا . يؤنثون فى اختيارهم كلمة "سبيل" لجواز التأنيث أيضا قال تعالى فى سورة يوسف . على نبينا وعليه الصلاة والسلام . "قل هذه سبيلى أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين(١٠٨) .

٣- جاء فى سورة الأحزاب قوله تعالى: "وتظنون بالله الظنونا (١٠) بالألف، ومثلها فى آخر السورة : يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا(٦٦) وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا(٦٧) ورغم أن هنا ثلاث قراءات: الأولى لنافع وابن عامر وأبى بكر (شعبة عن عاصم) وأبى جعفر يقرأونها بألف بعد النون واللام وصلا ووقفا للثلاثة وبهذا رسمت الكلمات الثلاث، أما ابن كثير وحفص والكسائى وخلف عن نفسه فيثبتونها فى الوقف دون الوصل والباقون يحذفها فى الحالين لأنها لا أصل لها.

ومع ذلك نجد من يقولون قولا عظيما مثل قولهم اتباعا للرسم وكأن الرسم هو الفيصل وعليه المعول وهذا باطل والقراءة سابقة على الكتابة وقولهم إجراءا للفواصل مجرى القوافى فى ثبوت ألف الاطلاق وهذه ثانية الأسافى أما ابن السمين فى الدر الثمين فقال: قولهم تشبيها للواصل بالقوافى لا أحب هذه العبارة فانها منكرة لفظا، وإنى أتفق مع صاحب "اتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر" فى قوله: هذه الألف تشبه هاء السكت ومنهم من أبقى عليها وصلا ووقفا أو وقفا فقط وأما من

حذفها فعلىالأصل، هذا هو التعليل المادى ولو شئنا تعليلا معنويا لقنا إن القرآن الكريم لا يعتريه اضطراب ولا يتأثر باضطرار كالذى يعانى منه الشعر واصحابه" وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو الا ذكر وقرآن مبين(٦٩) لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين(٧٠) سورة يس وإنما الإضطراب قصه القرآن عمن وقفوا هذا الموقف وعانوا من هذه الشدة فظهر ذلك على ألسنة البعض دون الآخرين فلماذا قال لهم القرآن الكريم أو عبر عنهم بقوله: "وتظنون بالله الظنونا" "هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا" فالاعداء محيطون بهم من الخارج ومتغلغلون بينهم فى الداخل ويتهكمون عليهم علانية "وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا(١٢) وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا(١٣) ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا(١٤) ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مفعولا"(١٥) أما اضطراب أهل النار فى النار – والعياذ بالله فحدث عنه ولا حرج – فهم "يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا(٦٦) وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلُّون السبيلا(٦٧) ومنهم من قالها وفقا للنظام المتبع واشارت الى ذلك القراءات الأخرى ولدينا فى سورة النساء كلمة "السبيل" وقد وقعت بين فواصل تنتهى بالألف وهى قوله تعالى: "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل"(٤٤) بل إن سورة الأحزاب ذاتها قد جاء فى مستهلها: "والله يقول الحق وهو يهدى السبيل"(٤) ولم نجد فيها فاصلة أخرى إلا وتنتهى بالألف حتى ولو كان بديلا عن تنوين، فمادام الله تعالى هو قائلها فقد جاءت على أصلها دون اضطراب كما هو حادث من قائليها حال الشدةوالكرب والوقوع وسط المصاعب والتعب. وكما قلنا نجد المعاهدين لأهل المدينة من اليهود قد تخلوا عنهم فىهذه الفترة العصيبة وزاد من آلام المؤمنين تهكم اليهود المنافقين بترديدهم: يعدنا

محمد ملك كسرى وقيصر وإن أحدنا لا يستطيع قضاء حاجته، وفى سورة الفرقان أيضا" أم هم ضلوا السبيل(١٧)" والسورة كلها مختوم آياتها بالأتقات.

٤- فى محاضرة ألقيتها بالجامعة الاسلامية عندما كنت أستاذا بإحدى كلياتها وهى كلية القرآن الكريم وفى ندوة عامة وكان عنوان المحاضرة "إعجاز وبيان فواصل القرآن" وجه لى سؤال عن "الجناس فى القرآن الكريم"، ومن الجناس غير التام قوله تعالى فى سورة الأنعام: "وهم ينهون عنه وينأون عنه"(٣٦) وفيه يختلف نوع الحروف وبما أن الحرفين المختلفين متقاربين أو بمعنى أدق متجانسين لأنهما مخرج واحد وهو أقصى الحلق الذى يخرج منه الهمزة والهاء سمى هذا النوع مضارعا، ومثله أيضا قوله تعالى فى سورة غافر "المؤمن": "ذلكم بما كنت تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون"(٧٥)، أما إذا تباعد الحرفان فى المخرج مثل قوله تعالى فى سورة "والعاديات": "وإنه على ذلك لشهيد(٧) وإنه لحب الخير لشديد"(٨)، وعندنا قوله تعالى فى سورة النساء: "وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به"(٨٣) وهذا النوع يسمى "لاحقاً" إلا ان الجناس التام الذى لم يدر بخلدى آنذاك وهو مثل قوله تعالى فى سورة النور: "يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار(٤٣) يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار"(٤٤) واذا كتب البديع التى درسناها[١] تشير بل تنفى صراحة على أن "الأبصار" الأولى دلالة على نواتج الأعين بينما الثانية . ومن سياق الآيتين إلى نواتج القلوب، وهذا يحفزنى إلى التفكير فى اختيار "الصدر" الذى يجمع شمل المدرستين" مدرسة المدنى الأولى والمدنى الثانى والمدرسة المكية فى عدد الآى فى أن عدد أى سورة النور اثنان وستين آية فى حين عدتها المدارس الأخرى (حسب التقسيم ثلاث مدارس أو اربعة) أربعا وستين آية اذ يقول الشاطبى فى ناظمة الزهر:

وفى النور دم سمحا وثنتان مصدره ... بالأبصار أسقطها والأصل للصدر.

ورمز "دم سمحا" تمثل العدد ٦٤ طبقا لحساب الجمل حيث العدد أربعة يقوم به حرف الدال من "أبجد" فهى رابع الحروف وإذا وصلنا للياء وهى تمثل العشرة كانت الكاف ممثلة للرقم ٢٠ وبعدها ٣٠ فى كلمن، وأول "سعفص" وهو السين = ٦٠ فتصير الجملة ٦٤، ولكن لماذا اسقط "الصدر" ويمثل المدارس الثلاثة المشار إليها "يسبح له فيها بالغدو والآصال" جزء من الأية(٣٦) والآصال[٢]". ثم كلمة

---

(١)الآية (٤٢) طبقا للعد المدنى الأول (مصحف قالون)، (٤٤) طبقا للعد الكوفى. ومن هذه الكتب "دراسات فى علم البديع للدكتورين محمود السيد حسن، مصطفى السيد جبر ص ٨٨ حيث جاء عن هذا المؤلف نصا: الجناس فى الآية الكريمة بين "الأبصار والأبصار" الأبصار الأولى بمعنى البصر، والثانية بمعنى العقول، وهنا نقول إن العد فى جميع هذا البحث طبقا للعدد الكوفى أو المدرسة الكوفية.

(٢)من القراء من اختار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح الباء فى "يسبَّح" فيصير الفعل مبنيا للمجهول أو المفعول ومنهم من كانت قراءته فى اختياره عن الرسول صلى الله عليه وسلم بكسر الباء "يسبِّحُ" فيصير الفعل مبنيا للمعلوم أو الفاعل والمجموعة التى وقع عليها الاختيار الأول هو ابن عامر الشامى وشعبه راويا عن عاصم الكوفى، قال ابن الجزرى – وافتحوا .. لشعبه والشام بالمسبِح أما باقى العشرة فاختاروا الثانية. وبناء الفعل للمجهول أن غياب الفاعل يثير الاهتمام ويدعو الى التساؤل: من هو الذى يسبح؟ أو من هم الذين يسبحون؟ فيأتى إجابة هم لها مرتقبون ومنتظرون،

الأبصار الأولى بحيث لم تعد هذه الكلمة رأس آية عندهم فهذا ما حيرنى حتى أزال هذه الحيرة مجانستها للأبصار الثانية لأن الجناس: اتفاق اللفظين فى النطق واختلافهما فى المعنى. فإذا كانت الآيتان(٤٣)، (٤٤) آية واحدة . كما هو مفهوم من عد "الصدر" لآى النور – سهلت المقارنة وأمكن العثور فى سهولة ويسر على موضع الجناس، والوصول الى معناه وإن أحيط بسياج من الدقة كعهدنا بما درج عليه التعبير المعجز فى جميع أساليب القرآن الكريم.

٥– وتتضافر اللغة العربية مع الفقه الإسلامى تحت مظلة النسق القرآنى ليخرج من هذا الإتحاد حكم دقيق يسير عليه الناس وقد شمل الأمن مجتمعهم البشرى إذا هم

سعوا الى تطبيقه والإستفادة من حسناته ومزاياه، قال تعالى فى سورة المائدة: وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص"(٤٥)، فمن تصدق به فهو كفارة له.

= ولو تصورنا فى الحى فاتنة غاثية يتمناها زوجة كل شاب وقد ملأت عليهم الاسماع، والأبصار وشغلت منهم العقول والقلوب وشغفتهم حبا وهياما، وشوقا وغراما، فآذابهم ينبأون بخطبتها أو زواجها فلو أبيح باسمه لكان الأثر المترتب على هذا الخبر قصير المفعول، أما إذا جئ بصفة المجهول، فان أمطار الأسئلة تهطل: أهو قارونى الثروة حتى قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم"، وانظروا كم من التأكيدات فى مثل هذا التعبير. أهو الملبى إذا ما دعا والمجاب إذا ما أمر، وباشارة منه تنقلب الدنيا رأسا على عقب كالذى" قال رب أغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب(٣٥) فسخرنا له الريح تجرى فأمره رخاء حيث أصاب(٣٦) والشاطين كل بناء وغواص(٣٧) وآخرين مقرنين فى الأصفاد(٣٨) هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب(٣٩) وإن له عندنا الزلفى وحسن مآب(٤٠) سورة ص، أى أن الدنيا والآخرة كليهما كانتا من نصيبه. أم أنه يوسفى الحسن والوسامة بحيث تحلق الأخيلة فى جماله فتنعته لا بالملك العادى ولكن بالملك الكريم ؟!

وفى الآية الكريمة ثلاث قراءات: بنصب المطوفات جميعها، وبرفع "العين" وما بعدها وهى قراءة الكسائى وبرفع "الجروح" فقط وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وأبى جعفر أما القراءة بنصب المعطوفات جميعها فقرأ بها الباقون الستة بعد من ذكروا وهم: نافع وابن عامر، والكوفيون الثلاثة حمزة وعاصم وخلف العاشر ويعقوب الحضرمى.

ويتعرض صاحب "أثر القراءات القرآنية "للمسائل النحوية فيقول: الحجة لمن نصب "النفس" ورفع ما بعدها وهو الكسائى، أن النفس منصوبة بأن ، "بالنفس" خبرها. وإذا تمت "أن" باسمها وخبرها كان ما بعدها المبدأ والخبر مستدلا بلك على

قوله تعالى فى سورة التوبة: "أن الله برئ من المشركين"(٣) (وذلك برفع المعطوف وهو "رسوله" واستكمالا لها نقول "ورسوله كذلك" تقديرا .

والحجة لمن نصب إلى آخر الكلام أن "أن" وإن كانت حرفا فهى شبيهة بالفعل الماضى لبنائها على فتح آخرها كبنائه، وصحة كناية الإسم المنمصوب فيها كصحة كنايته فى الفعل اذا قلت (ضربنى وأننى) فلما كانت بهذه المنزلة، وكان الاسم الأول منصوبا بها، كان حق المعطوف بالواو أن يتبع لفظ ما عطف عليه إلى انتهائه.

والحجة لمن نصب الكلام ورفع "الجروح" أن الله كتب فى"التوراة" تعالى شأهد – على بنى إسرائيل أن النفس بالنفس" إلى قوله "والسن بالسن" ثم كأنه قال – والله أعلم – ومن بعد ذلك "الجروح قصاص". والدليل على انقطاع ذلك من الأول أنه لم يقل فيه "والجروح بالجروح قصاص" فكأن الرفع بالإبتداء أولى، لأنه لما فقد لفظ "أن" استأنف لطول الكلام ونسب ذلك إلى (الحجة فى القراءات السبع لابن خالوية، تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت سنة ١٩٧١ ص ١٠٥، ١٠٦).

وقد تعرضت شخصيا عند مناقشتى إحدى الرسائل العلمية فى كلية القرآن الكريم بالجامعة الاسلامية (أثناء إعارتى بها من ١٩٩٧ – ٢٠٠١) إلى هذه النقطة فعزوت ذك إلى أنه – والعلم عند الله – عند اختيار قراءة نصب "النفس" فقط ورفع ما بعدها يكون فناء صاحبها وخروجه من دنياه، أما ما تبقى بعد ذلك فمجرد نزع أجزاء لا يترتب عليها الهلاك. وأما رفع الجروح وحدها دون غيرها فقد يكون بسبب أن الأجزاء الأخرى مبنية ومحددة يسهل انتزاعها دون الوقوع فى المغالاة أو المجاوزة "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله" .. (١٩٤) سورة البقرة، ومن ثم كان المسبار Sonde يدخل لبيان عمق الجرح وإحداث مثله دون زيادة أونقص بل الحق الذى هو أحق أن يتبع.

والخلاصة :

هذه اللغة بحق وجدارة تعد أقدر اللغات على استيعاب المادة العلمية وكان لأستاذنا الدكتور على حلمى موسى باع فى إقناع مسئولين من جامعة كنيتكيت ثم كانت هناك مساع لتعاون هذه الجامعة فى إنشاء المركز العلمى للدراسات العربية" ومقره جامعة عين شمس. وإن دل هذا على شئ فإنما لم يقتصر سعى الأجانب ودأبهم وتفكيرهم على القرآن والقراءات وجهودهم فى تحقيق ما ألف بشأن هذه القراءات التى هى أصل اللغة ومعينها وسر نهضتها وانتشارها وإنما امتد ذلك ليستبينوا سبيل هذه اللغة الواسعة الفسيحة التى امتدت مفرداتها ومشتقاتها لتكون مظلة تستوعب وتغطى ما شاء الله من محدثات عصرنا ومخترعاته ولقد صدق الشاعر الذى تحدث بلسانها فقال :

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن .... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى

* * *